الفصل الثالث

(المديح)

وجَدنا في الفصلين السابقين أنَّ الاتجاه البدويّ كان واضحاً كثير الظهور في الشعر الأندلسي ، في غرضي النسيب والوصف .

ونحن في هذا الفصلِ سنحاول الإلمام بهذا الاتجاه في قصيدة المدح ، وما تتضمَّنه هذه القصيدةُ من تقاليد بدويَّةٍ عربيَّةٍ موروثة .

وقد كان الشعر ـ كما نعلم ـ ديوان العرب الذي سجَّل فيه الشعراءُ أدبهم وتاريخهم وحياتهم وعواطفهم وأحلامهم ، وكان المدح من أكثر أغراض الشعر العربي حضوراً لأهميته القصوى في أنَّه الصوت الإعلامي الوحيد ـ إذا استخدمنا لغة العصر ـ الناطق باسم الدولةِ والحكام ، والساسة ، والذي يُعرَفُ به وجوهُ القوم وأصحاب الرأي والمشورة والقيادة ، والذي يُتغنَّى فيه بشمائلهم وأخلاقهم وآثارهم ، فقد احتاجوا هذا الشعرَ ((في تخليد المآثر وشدَّةِ العارضة ، وحمايةِ العشيرة ، وتهيُّبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يُقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته . . .))[1].

ومن هنا ؛ اكتسب الشاعر المادح أهميَّة في بلاطاتِ الحكم وأروقة السياسة ، بما لَهُ من سلطة القول الشعري ، وكانت هذه القوّة لا تأتي إلاّ إذا أثبت الشاعر قدرةً بيانيَّةً خاصَّة ، تؤهِّلُهُ لأن يكون من كبار الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان ، ويسعى الحكام والملوك لكسب وجودهم في أنديتهم وبلاطاتهم ، ممَّا هيَّأ للشاعر بالتالي أو خوَّلهُ أن يحظى بالعطايا والهباتِ والمكافآت ، ومن هنا كانت لقصيدةِ المدح أهميتها المتبادلة بين الممدوح والشاعر ، فقد ((كانت هذه المدائح ضرورةً لازمةً للملوكِ وذوي الشأن ، ودوافعها النفسيَّة واضحة لا تحتاج إلى بيان ، فقد كانت للشعر عند العربِ قيمة سياسيَّة كبرى ، ظلَّ يحتفظ بها على مرِّ العصور ، ثمَّ إن التصوير والمثالة كانا محرَّمين على المسلمين ومن ثمَّ كانت قصيدة المديح تقوم مقام اللوحاتِ الرَّسميَّة ، التي كان غير المسلمين من الملوك يؤجرون الرسامين على رسمها . . .))[2].

---

(١) العمدة ، ابن رشيق ، ٨٢/١ .

(٢) الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، إميليوجارثيا جومث ، ص٧٧ .

إلاَّ أنَّ المدح ـ وإن ارتبط بالسلطةِ والحكم ـ فإنه لا يقتصر عليها ، فقد مُدح الأصدقاء والإخوان وغيرهم ممَّن كان للإعجابِ بهم دورٌ أساسٌ في استحقاقِ أن ينالوا من الشاعر مدحاً يبقى على مرّ الأيام ، بقاء الشعر ـ إذا كان هذا الشعر مؤَهلاً للبقاء ـ ولذلك كلِّه كانت قصيدة المدح معرضاً لإظهارِ ثقافةِ الشاعر ومهارته الفنيَّة وبيانه ، ومحاولة إثبات مقدرةٍ تؤهِّلُهُ لأن يكون من أوائل الشعراء وأن يحتفي به النُّقاد ، فنجد المدح يسعى بالشاعر ، أو يسعى به الشاعرُ نحو المبالغة في التجويد والإتقان ، فيفقد ـ عند بعض الشعراء ـ شيئاً من العفويَّةِ أو شيئاً من الصِّدق الذي يكسبُ به الشعر رونقه ، ممَّا نجده حاضراً بقوّةٍ في النسيب .

وقد كان لقصيدةِ المدح في الشعر العربي أهميتها الكبرى منذ العصر الجاهلي ، وكانت سبباً في حفاوة مؤرخي الأدب بالشعراء والتفاتهم إليهم ؛ فقد ذكر ابن بسام في الذخيرة ، أنَّ عبد العزيز الداني كان صاحب أدب وشعر يُستحسن ((إلاَّ أنَّه لم يَرْضَهُ مكسباً ولا اتخذه إلى أحد من الملوك سبباً فذهب عن أكثر النَّاس ذكره ، ومات قبل موته شعرُه . . .)) [١] ولم يذكر ابن بسام شعره مع استحسانه له ، بينما جمع أشعاراً لأخيه أبي بكر الداني الذي ((تردَّد على ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس ، تردُّدَ القمر في المنازل .. .)) [٢] ، وكانت عناية الملوك وولاة الأمر في الأندلس بالشعراء كبيرة فالمعتمد بن عباد ((حاول خلال حكمه الطويل أن يجعل إشبيلية مهوى الأفئدة ، وأشدَّ البلاد إن لم تكن وحدها جذباً للأدباءِ في شبه الجزيرة ، ونزعت عاصمة بني عبّاد إلى أن تضيف التفوق الثقافي إلى ما تتمتع به من نفوذٍ سياسيّ . . .)) [٣].

(١،٢) الذخيرة ، ابن بسام ، قسم٢ ، ج٣ ، ص٦٦٧ .

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٦٠ .

وكذلك في عصر الموحّدين ((كان للولاة والأمراء دورٌ كبير في ذلك أيضاً، إذ كانوا يتنافسون فيما بينهم لاستقطاب الشعراء، والاستئثار بهم ...))[1]، ولم يكن شعر المدح مرتبطاً بالمناسباتِ الرسميَّة فقط فقد ((كان يحلو للحكام والأمراء أن تكون لهم مسامراتٍ على غرار المناسبات يعقدونها مع شعراء بلاطهم ، وهو تقليدٌ استمرَّ مع كل الأمراءِ والعظماء ، وانتشر بين كل الطبقات المثقفة))[2]، ولذلك فإنَّه ؛ لمَّا كان لشعر المدح أهميته الكبرى من حيث ما ذكرناه ، وما كان يمثلُه الشَّاعر المادح من قوَّةٍ أدبيَّةٍ تؤهّلُهُ لمكانةٍ بارزة ، في البلاطاتِ وعند الحكام ، وتؤهلُهُ لأن يكون موضعَ العنايةِ من مؤرخي الأدب ونقاده ، كان على هذا الشاعر أن يعتني عنايةً قصوى بقصيدته التي ستُعرض على الخاصّةِ من المثقفين والحكام ، الذين كانوا يتميّزون ـ غالباً ـ بالتذوق الشعري والأدبي والثقافة العالية ـ إن لم يكن الحكّام أنفسهم من الشعراء ـ ولذا ؛ اكتسبت قصيدةُ المدح أهميّتها ، وأهميَّة أن يكون الشاعر المادح مجوِّداً قادراً على إثباتِ براعةٍ في القول ، وكان سبيلُ الشاعر الأندلسي في ذلك تتبُّع التقاليد المتوارثة في شعر المدح العربيّ ، فالقصيدة الأندلسيَّةُ جزءٌ من منظومةِ هذا الشِّعر ، ولذا جاءت هذه القصيدة حافلةً بصور البداوة ، متخذةً من الطريقةِ البدويَّة في المدح ، وبخاصَّةٍ في المقدِّمات سبيلاً لإثباتِ البراعة ، لأنَّ الموروثَ الشعري العربي البدويّ القديم هو الذي طبع ثقافة العرب وأدبهم ، فقد تجسَّدت فيه حياتهم منذ أوَّل تاريخهم بما فيها من بداوة وعاداتٍ وأرضٍ ووحشٍ وطيرٍ وإبلٍ ونساء ، هذا الموروث الشعري البدويّ هو المتداول في الأندلس ، وهو الأساس الذي بُنيت عليه الثقافة الأندلسيَّة ، وهو المنزع الذي تنزع إليه نفوس العرب وتتوقُ له على اختلاف وجهاتهم وأراضيهم وبيئاتهم ، ولذلك فإنَّه ((إلى جانب ما تقع عليه العينُ نجدُ وصفاً

---

(١) الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين ، دكتور فوزي عيسى ، ص١١٠ .

(٢) الأدب الأندلسي ، ماريا خيسوس روبيرامتى ، ص٥٦ .

وذكراً لما يصلُ إليه الخيال ، فكأنَّ الشاعر لا يكتفي بأن يكون شعره عَرْضاً لما يظلِّلهُ أو يسحر عينه ، أو يدبُّ حوله ، فتراه ينتقلُ ليرى بعين الخيالِ ما رآه الجاهليُّ في الصحراء البعيدة من آبارٍ وجمالٍ وأسراب مها ، ورمادٍ ، ونؤي ...))[1].

ومن هنا ؛ فإنَّ معظم قصائد المدح تضمَّنت صور البداوة على تراوحٍ في التبدّي بين الشعراء أو في القصائد المختلفة ، فقد تكثرُ هذه الصُّور في القصيدةِ الواحدة أو تقلّ ، ولكنَّ معظم المقدماتِ في القصيدةِ المدحيّة جاءت بدويَّة الصور ، متتبعةً في معظمها العناصر التقليديَّة في بناء قصيدة المدح التي ذكرها ابن قتيبة وقال إنَّه سمعها من بعض أهل الأدب ، فقال : ((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنَّ مقصِّدَ القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الرَّبع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمدِ في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبُّعهم مساقط الغيث حيثُ كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدَّة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابةِ والشوق ليميلَ نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس لائطٌ بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبَّة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلِّقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهمٍ حلالٍ أو حرام ، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقَّب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى الليل ، وإنضاء الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة ، وهزَّه للسماح وفضله على الأشباه وصغر في قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من

---

(١) ديوان ابن عبدون اليابري ، تحقيق : سليم التنير ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، ط . الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م ، من مقدمة المحقق ، ص٣٣ .

سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد)) [1] .

فنصَّ ابن قتيبة على أنَّ ما ذكره من تقاليد شعريَّة من الوقوف على الطلل ، ووصف الظعائن ، ووصف الرحلة ، كان في مقدّمة المديح ، ((وواضحٌ في هذا أن الوقوف على الأطلال ثمرةُ الحياةِ المتنقلة في الصحراء ، وأن النسيب وذكرُ النساء ، إنَّما جيء به في القصيدة ليهزَّ قلب السامع ، لأنَّ الله جبل النفوس على حبِّ النسيب وما يتَّصل بالمرأة ، ثمَّ إنَّ الرحلة لبيان العناء ، والكدّ ، فيستحقُّ بذلك العطاء من الممدوح ، وهذا واضح في قصيدة المديح والتي يراد بها التكسُّب . . .)) [2] .

فابن قتيبة ((يصفُ شكل المدحةِ الخارجي ومضمونها الداخلي ، ويعلِّل لبعض أجزائها تعليلاً دقيقاً . . . وإن كان لنا من مأخذ على صاحب هذا الرأي فهو أنَّه ظنَّ أن الشعر كله مدح ، وأن المدحة ينبغي أن تسير على شاكلةٍ معينة ، وخاصَّة إذا أنشدها أمام الجمهور . . .)) [3] .

وقد وجدنا أن القصائد المدحيَّة الأندلسيَّة لم تكن في معظمها على هذا النمط التقليديّ في البناء ، وكذلك كانت قبلها القصائد الجاهليَّة ، فـ ((الواقع أنَّ هذا التصوُّر لبناء القصيدة يحتاج إلى كثيرٍ من الضوابط حتى يستقيم ، فإن هناك قصائد بدأت بغير الوقوف على الأطلال ـ كما قلنا ـ وهناك قصائد انتهت بالأطلال والنسيب والرحلة ، ولا يدلف منها الشاعر إلى غرض خاصّ ، وكأنه يقول الشعر لمجرد التصوير والغناء ...)) [4].

---

(١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٤ .

(٢) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٣٦٩ .

(٣) مقدمة القصيدة الطلليَّة في العصر الجاهلي ، دكتور حسين عطوان ، ص٢١٧ .

(٤) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٣٧٠ .

وسواءً وقف الشاعر على طللٍ فبكى واشتكى ، أو تجاوز إلى وصف الرّحلة أو طوى ذلك إلى النسيب ، وما إلى ذلك من مقدماتٍ ، فإنَّها كلَّها تتطلَّب الإجادة ، ولا نعني بهذه الإجادة الالتزام بتقاليد وقواعد وعناصر ، لأنَّ الشعر يستعصي على الإخضاع والتقنين ، ولكننا نعني بها القدرة في مقدّمةِ المديح على شدّ الانتباه للقصيد ، وقد يكون ذلك من بابِ الحنين والشجن فـ ((هناك قصائد كثيرة لم تبدأ بالوقوفِ على الأطلال ، ولكنها استبدلت بهذا النغم نغماً آخر فيه شجون وإثارة ، مثل الطرب ، والشوق ، وبكاء الشباب والرحلة ...))[1]، وغير ذلك كثيرٌ ممَّا يجودُ به الشعر من عواطف ودواخل نفوس ، ((فسواءً من وقف على طللٍ ومن خاطب صاحبه ، أو نادى صحباً ، أو اهتزَّ وطرب واستجاشته الرحلة ، أو بكى شباباً ، أو ذكر هموماً مختصرةً لديه ، كل هؤلاء نجد في حسِّهم الغائر شعوراً يكاد يكون واحداً ، نجدُ إحساساً يهتف بالحنين والشوق ، سواءً كان لطللٍ ، أو كان لشبابٍ ، أو لنمطٍ من الحياة الناعمة التي أحاطتها أحداثٌ وتقلُّباتٌ صيَّرت الشاعرَ في حالٍ غير هذا الحال ...))[2].

وعلى هذا . . . فإنَّ قصيدة المدح الأندلسيَّة جاءت مختلفة البدايات والمطالع ، ولكنَّها أيضاً جاءت منسجمةً تماماً مع النغم الشعري العربيّ ، متداخلةً بخيوطها في نسيجه الذي يخضعُ فيه للموروث البدويّ القديم ، خضوع الذات لمن تحب ، والنفس لما تهوى ، ولذا فإنَّ أكثر ما نلاحظ من بداوة في المدح الأندلسيّ جاءت في المقدّمات ، لأنَّ رموز البداوة محمَّلةٌ بشعور الحنين ، الذي يشدُّ القلوب إلى الشعر ، ممَّا هو مطلوبٌ في قصيدةِ المديح ، لأنَّ الحنين من أبرز عناصر هذا الشعر ، فـ ((عنصرُ الحنين الذي تراه ثاوياً وراء كل هذه الأنماط من العناصر الرفيعةِ في الشعر وكأنه مفتاح النغم في هذه القصائد ، به تُستثار النفوس ، وتتهيَّأُ تهيُّؤاً شعوريّاً للتَّلقي وسماع

(١،٢) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٣٦٥ .

الإنشاد . . . وذلك لأن الحنين كما قلنا عنصرٌ مثيرٌ وقادرٌ على الهزّ وبعث الخواطر الرَّحبة والولوج في عالم الأسرار والرؤى والأحلام))[1].

ومن هنا ؛ فإنه بهذا العنصر المغلَّف بصورٍ من البداوةِ في مقدمات المديح الأندلسيّ ، يستثير الشاعر نفسه قبل الآخرين ليبعث في ذاتِهِ انتشاءً يستمدُّ منه القوَّة الشعريَّة على التمدُّح والمدح ، وفي هذا الفصل سنعرض لبعض القصائد التي تشتمل على بعضٍ من هذه المقدماتِ البدويَّة ، ممَّا يُظهر لنا وضوحَ العنصر البدويّ في شعر المديح الأندلسيّ .

* * *

(١) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٣٦٥ .